حركة التعليم في المغرب الإسلامي إبان القرنيين 3– 4 هـ/ 10–11م

أ. إسماعيل سامعي
كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مدخل

الحديث عن التعليم في تاريخنا يعني مقوم حضاري أساسي في تاريخ حضارتنا، فمن خلاله نكتشف عمق وجذور عقليتنا كمغاربة، وجزائريين، ونقف على عطاءاتنا الفكرية، والعلمية التي تعكس إمكانياتنا على التواصل من جهة، وعلى قدراتنا في الإبداع والمشاركة الحضارية من جهة أخرى.

إن الحديث عن التعليم في بلاد المغرب الإسلامي في القرنيين الثالث والرابع الهجريين/ العاشر والحادي عشر الميلاديين، هو حديث عن إحدى السمات البلوزة والأساسية في الإزدهار الحضاري العربي الإسلامي عموما، والمغربي خصوصا، ولابد قبل التطرق إلى صلب موضوعنا أن نطرح الأسئلة التالية: كيف نشأ التعليم العربي الإسلامي ببلاد المغرب؟ وهل نشأ من فراغ أم على أرضية تعليمية كانت

قائمة من قبل؟ وكيف تطور؟ وماهي صور هذا التطور؟ وماهي النتائج المحققة في هذا المجال؟

ولكي نجيب على هذه الأسئلة لابد من التوقف عند نقطتين هامتين:الأولى تبحث في حالة التعليم في بلاد المغرب قبل وأثناء الفتح العربي الإسلامي؛والثانية خاصة بنشأة التعليم العربي الإسلامي أثناء الفتح.

النقطة الأولى:إنه لمن الضروري أن نعطي لمحة قصيرة عن وضعية التعليم قبل الفتح وأثنائه،فالتعليم في العهد الروماني(146ق.م-431م) ببلاد المغرب شهد ازدهارا نوعيا في الأوساط اللاتينية، ومن سار في ركابهم بالضبط مثل ما حدث في العهد الاستعماري الفرنسي، إلا أنه استفاد منه بعض أبناء السكان المحليين لاسيما في المدن الكبرى،كمداوروش وقرطة(قسنطينة)،وقد كان التعليم موكولا إلى السلطات المحلية مثل البلدية، أو لتطوع بعض الأثرياء، أو لجماعات المواطنين،وذلك من حيث إعداد أماكن الدراسة، أو دفع أجور المعلمين،ولم تكن طرقه،ومناهجه،وتنظيماته واضحة،وما يمكن قوله هو أن تعليم القراءة والكتابة كان منتشرا بشكل واسع في حين كان التعليم الذي يوجه للكبار ينصب على تفسير نصوص الشعر والتاريخ،والتدرب على الخطابة،والجدل،لاسيما في المدن الكبرى مثل قرطاج،وقرطة ومداوروشMadour،واستخدمت ثلاث لغات في التعليم هي:الليبية والبونيقية واللاتينية، والأخيرة كانت رسمية في العهد الروماني، وكانت كل مدينة تشجع أبناءها على التعليم والتعلم،وتقيم الاحتفالات لتثمين جهودهم،وتمجيد الناجحين منهم،ويقيمون للمتفوقين التماثيل،وقد يفسر هذا سر إنجاب المغرب أعلاما عالميين في الأدبين الوثني والنصراني،وابتداء من القرن الثاني الميلادي

مثل "أفرنطوس AFrantos" القرطي أستاذ الإمبراطور ماركوس أوريليوس Marcos Orilyos (251- 260م) والذي كانت له شهرة في علم الأدب، والكاتب الروائي الشهير أبوليوس Apulic المولود بمداوروش عام 125م الذي كان فنانا رقيقا، وخطيبا بليغا، وهو صاحب الرواية الفلسفية الخالدة «الحمار الذهبي»،والقديس أوغسطين صاحب كتاب"شمس الله". إلا أن هذا الازدهار التعليمي والعلمي والفكري سرعان ما بدأ في التولي والانحدار بضعف السيطرة الرومانية،واختلال الأمن حيث ظهرت الفتن والثورات، فاشتغل الجميع بها خاصة فتنة أو ثورة الدوناتيين، وزاد هذا الوضع تدهورا بغزو الوندال لشمال أفريقيا، ثم جاء البيزنطيون فعمقوا هذا التدهور.وباعتبار أن التعليم كانت تسيطر عليه الكنيسة أو رجال الدين فقد حاول البيزنطيون إعادة نفوذ الكنيسة الكاثوليكية،واسترجاع الكنائس، وتعذيب الطوائف الأخرى الأوروبيين والوثنيين، وحتى اليهود الذين اضطروا إلى الاحتماء بالقبائل المحلية، وتحولت المدن إلى شبه معسكرات، وتهدم الكثير منها،وهو ما يفسر بروز ظاهرتين في مجال التعليم هما:

الأولى:ترييف المدن حيث هجرها اتلها أو استقبلت أفواجا من أهل الريف....

الثانية: تحول المراكز الثقافية، والتعليمية إلى أماكن معزولة في الأرياف والبوادي لاسيما أنه صادف انتشار الرهبنة بداية من القرن الرابع الميلادي، وكذا الطوائف منها الطائفة التي تق،ول بالإرادة الواحدة الإلهية والبشرية معا للمسيح، وقد نزحت هذه الطوائف من مصر بسبب الضغوط الدينية والسياسية التي تعرضت لها هناك، فتركزت أديرتها في المناطق الريفية

والجبلية المنعزلة حيث قامت بمهمة التعليم، وهذا يشبه إلى حد بعيد انتشار الزوايا في مثل هذه المناطق في أواخر العهد العثماني بالجزائر، والعهد الاستعماري الفرنسي لنفس الأسباب تقريبا منها البعد عن ضغط السلطة، ومحاولة كسب أنصار من البدو والريفيين السذج، كما نلمح هذا في بعض الدعوات التي عرفها المغرب كالدعوة الخارجية، والعلوية، والفاطمية.

النقطة الثانية: وتخص نشأة التعليم العربي الإسلامي إبان الفتح؛ فمما سبق التعرض له يصعب إيجاد أية علاقة بين ما كان قائما من تعليم وثني أو ديني، ونشأة التعليم العربي الإسلامي بالمغرب، حيث أن الأوضاع المتدهورة التي امتدت على طول ثلاثة قرون تقريبا[2] قد ساهمت في طمس معالم التعليم؛ ثم أن تعاليم الشريعة الإسلامية عملت على إحداث القطيعة مع وثنية الماضي، لكن أنماط الثقافة المحلية تواصلت في حياة المجتمع بخلاف التعليم كمنظومة.

إن فترة القرنيين الأول والثاني الهجريين تخلو من المصادر المباشرة التي تترجم للعملية التعليمية، غير أن إشارات عرضية قدمتها كتب التراجم كالمعالم للدباغ،والرياض للمالكي، وكتب الإخباريين كالبيان لابن عذاري؛ ورغم عرضيتها إلا أنها على جانب كبير من الأهمية يمكن إذا جمعت ودرست بعناية أن تشكل مادة أساسية لهذا الموضوع في مرحلة النشأة الأولى، وعليه نقول أن نشأة التعليم العربي الإسلامي ببلاد المغرب تعود إلى سنوات الفتح الأولى، بالتقريب إلى عهد عقبة بن نافع (49-55هـ/670-675م و62-66هـ/682-886م) حيث كأن إثر كل فتح

منطقة من مناطق المغرب يعهد إلى بعض رجال جيشه المتعلمين تعليم أهالي تلك المنطقة أو البلد القرآن وتفقيههم في الدين، ونذكر على سبيل المثال من هؤلاء المعلمين شاكر صاحب الرباط[3]، وسار على هذا النهج نفسه قادة الفتح لاسيما حسان بن النعمان، وموسى بن نصير؛ فموسى بن نصير (86-95هـ/705-714م) لما عاد من فتح المغرب الأقصى استعمل طارقا بن زياد على طنجة، وأمر العرب المتعلمين من جيشه أن يعلموا البربر القرآن، ويفقهوهم في الدين، حسب الرقيق كانوا سبعا وعشرين معلما[4]، ومن تقاليد الفاتحين أنهم كانوا كلما فتحوا بلدا أقاموا مسجدا، وعينوا قاضيا، وأميرا من أهله[5]، والمسجد أحد المراكز التعليمية الأساسية في الإسلام، وبهذا امتدت مراكز التعليم -المدارس- الأولى عبر ربوع بلاد المغرب. ويبدو أن هذه الجهود قد أعطت ثمارا مبكرة تعود إلى عهد حسان بن النعمان (73-86هـ/696-705م)، كان قد انطلق الإقبال على التعليم من طرف السكان المغاربة المحليين؛ الشيء الذي حرك الخلافة في عهد عمر بن عبد العزيز فاهتمت بهذا الجانب؛ ويتجلى ذلك بإرسال بعثة تعليمية عرفت ببعثة العشرة على رأسها الوالي إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر (100-101هـ/ 718-719م)،ومعها بدأت حركة التعليم تتضح بأخذها الطابع المدني بدل الإشراف العسكري.فقد أسس هؤلاء مراكز للتعليم بالقيروان، فكل واحد أقام مسجدا بقرب داره لمجالسة العلماء، ومناظرة أصحاب الآراء، والعقائد وبقربه أقيم كُتّاب لتعليم الصبيان القراءة والكتابة والقرآن، وقد أصبح هذا تقليدا توارثه المغاربة.

وإذا كان حل هذه المراكز التعليمية قد تمركز في الحواضر، فإن الحركة المذهبية جعلت الحركة التعليمية تمتد إلى الأرياف والبوادي خلال القرن الثاني الهجري لاسيما مع بداية انتقال وظهور المذاهب الفقهية، والفرق الدينية منها الخوارج الصفرية والإباضية، والعلويين، وأيضا العباد والزهاد، وذلك أن المغرب أصبح محطة لرجال هذه المذاهب والفرق، مسرحا لصراعاتهم ، وقصد التمكين لآرائهم بين الناس، وكسب أنصار لهم، فأصبح التعليم مطلب الجميع، ووضع في مرتبة الجهاد كما أشار إلى ذلك أسد بن الفرات[6].

حركة التعليم خلال القرنين 3-4هـ:

لقد تبلورت حركة التعليم مع بداية القرن 3هـ/9م،وراحت تقترب من أوجها مع الاستقرار النسبي الاجتماعي والسياسي، الشيء الذي جعل بعض رجال العلم يخصصون جزءا من أعمالهم للتنظير والتأريخ والدراسة لهذه الحركة نذكر من هؤلاء:محمد بن سحنون (202-256هـ/817-869م)، الذي قال عنه المؤرخ المالكي[7] نقلا عن أبي العرب:"كأن إماما ثقة عالما بالمذهب، مذهب أهل المدينة، عالما بالآثار لم يكن في عصره أحد أجمع لفنون العلم منه...)[8]، من آثاره كتاب "آداب المعلمين" وهو طريف في موضوعه استفاد منه مشاهير العلماء منهم ابن خلدون حيث أعتمد عليه في مقدمته في باب الشدة على المتعلمين مضرة بهم"[9]، كما نقل عنه أبو الحسن القابسي صاحب الرسالة "المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين"، والذي سنعود إليه بعد قليل، ويختص كتابه

هذا في شؤون التعليم المتعلقة بالصبيان، وبذلك يبدو أنه أرخ ونظّر للمرحلة الأولى من التعليم، وهو نوع دقيق من التخصص أخذ يبرز في كل ألوان المعرفة في فترة الازدهار الحضاري المغربي، أما الدارس والمنظّر، والمؤرخ الثاني لحركة التربية والتعليم أبو الحسن القابسي (324-403هـ/935-1012م) قال عنه صاحب المعالم: «كأن عالما عاملا جمع العلم والعبادة والزهد، والإشفاق والخشية،ورقة القلب ونزاهة النفس ...عالما بعلوم الحديث والفروع، واختلاف الناس، سلم له أهل عصره، ونظروه في العلم والدين والفضل»[10]، وكان مالكيا يميل إلى الأشعرية، وله آثار كثيرة منها كتابه:"الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين "التي أشتهر بها وإرتقى فيها بعلم التربية والتعليم، وجمع من خلالها ما كان يجري في هذا الميدان، وتشمل ثلاثة أبواب: الباب الأول يتناول أهداف التعليم مثل الإيمان، والإسلام، والإحسان، والاستقامة، والصلاح، وكلها تعني أن الهدف كان دينيا لاسيما في التعليم التمهيدي (الابتدائي) حيث كان على المعلم أن يلقّن التلميذ القراءة والكتابة، وخاصة حفظ القرآن، وهو ما أكده ابن خلدون بعد ثلاثة قرون فقال: "أهل إفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب، ومدارس قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها؛ إلا أن عنايتهم بالقرآن، واستظهار الولدان أياه ووقوفهم على اختلاف رواياته أكثر من سواه؛ وعنايتهم بالخط تبع في ذلك[11] والباب الثاني تناول فيه طرق ووسائل التعليم، أما الثالث فتحدث فيه عن التشريعات المهنية المتعلقة

بأجرة المعلم والهدايا المباحة –أي راتبه والعلوات بتعبير عصرنا– إلى جانب تعرضه لمبادئ تربوية طريفة، ومفيدة مثل العقوبة، في ختام الرسالة نجد بحثا في القراءات القرآنية المتفق عليها.[12]

ورسالة القابسي اقرب إلى الأحكام الفقهية، والفتاوى الشرعية التي تدرس ظاهرة مستجدة على المجتمع لتكشف عن مختلف جوانبها والتالي لتنظيم العلاقة بين أطرافها، وما التركيز على جانب المعلم إلا لكونه قد اضطلع بمسؤوليته عن رضى وقبول مسؤولية يترتب عليها تربية، وبناء ديني، وخلقي، واجتماعي للأجيال[13]، ويبدو أن القابسي كأن تتويجا لمرحلة مزدهرة من التعليم العربي الإسلامي ببلاد المغرب، كما كان أبو حامد الغزالي في المشرق حيث لم يأت من جاء بعدهما بجديد في هذا المجال إنما كان شرحا لما سبق.[14]

وعموما فالتعليم أدخل الإسلام إلى البوادي والأرياف والمناطق النائية والمنعزلة، وعمق مفهوم الشريعة، وأضعف العصبية القبلية، والاختلافات المذهبية، وبث روح الحوار والاعتراف بالرأي الآخر...

المؤسسات التعليمية:

تعددت المؤسسات التعليمية بحسب الأغراض، والوظائف المرجوة منها وهي كما يلي:

1– **الكُتّاب أو المكتب:** تعود نشأة الكتاب إلى تاريخ نشأة المسجد[15]، وعرف انتشارا واسعا منذ نهاية المائة الأولى للهجرة في المدن والأرياف على السواء، وقد عمت شهرته بلاد المغرب حتى أن ابن حوقل فيما بين

القرن الثالث والرابع الهجري أحصى في بعض مناطق صقلية وحدها قرابة ثلاثمائة كتّاب كان يتداول على الواحد منها أكثر من معلم[16]؛ وشكل الكتاب يختلف من جهة إلى أخرى فهو في الحواضر حانوت، وفي الصحراء خيمة، وفي الجبال مغارة أو كهف، ومن المعروف أن ابن خلدون كتب مقدمته في مغارة قرب قرندة ولاية تاهرت –الجزائر– اليوم.

2– **المسجد**:وهو أقدم نشأة كان مخصصا للمرحلة الثانية من التعليم حيث تعقد الحلقات والمجالس، ويبدو أن تخصصه كان للعلوم الشرعية واللغوية.

3– **الرباط**:أنشئ الرباط في الأول لحراسة الثغور والجهاد في سبيل الله، والرباط لم ينشأ من فراغ بل تعود نشأته إلى عهد الأديرة أي إلى القرنين الرابع والخامس الميلاديين، من حيث الشكل وبعض الوظائف؛ لكن في العهد الإسلامي تميز عنها في الأهداف والتعاليم، وقد بلغ الرباط أوج تطوره في عهد الوالي هرثمة بن أعين (179–181هـ/793–797م)، ولم يكن في الرباط معلمون وأساتذة دائمون فقط بل كان يتردد عليه العلماء والزهاد أمثال الإمام سحنون الذي كان يرابط برباط سوسة للتعبد وإلقاء الدروس والمحاضرات المجانية،وتذكر المصادر أن الربط كانت تنتشر على طول ساحل المغرب، وقد بلغ عددها حوالي ألف رباط، وبالتالي فإن عدد المدارس في هذه الأماكن تساوي هذا العدد تقريبا.[17]

4– **المكتبات**: من أهم المؤسسات التعليمية والثقافية فهي من جهة تعتبر تكمله لأعمال المؤسسات السابقة الذكر، ومن جهة أخرى فهي

معاهد علم وبحث، وتعود نشأتها بالمغرب إلى مرحلة استيعاب الثقافة المشرقية خلال القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي؛ والى عهد الحركة الاستقلالية حيث قام تنافس مذهبي، وعلمي، فاهتم رجال الحكم ورجال العلم بإقامة المكتبات، وتجهيزها والتفاخر بها، ومن أشهر هذه المكتبات مكتبة "بيت الحكمة" برقّادة الأغلبية التي يعود تأسيسها إلى أواخر القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي. وقد ضاهت "بيت الحكمة" في بغداد، ولم تكن مكتبة فحسب بل كانت معهدا لتعليم العلوم الطبيعية والرياضية والانسانية والترجمة، ومكتبة «المعصومة» الإباضية بتاهرت[18]. وقد كان لكل رباط مكتبة، كما توجد إلى جانب هذه المكتبات العامة مكتبات خاصة، فلا تكاد تخلو دار عالم من مكتبة معتبرة مثل مكتبة أبي جعفر أحمد بن زياد، وأبي محمد بن الطمار بالقيروان، وربيع القطان الذي كانت له مكتبة تحتوي على أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمائة كتاب نسخها بخط يده، كما كان لبعض السيدات مكتبات خاصة مثل عائشة بنت أحمد بن فادم.[19]

والنتيجة التي نخرج بها من ذكرنا لهذه المؤسسات هو أن المجتمع الذي أنشأها لأغراض عامة اجتماعية واقتصادية وعسكرية وسياسية قد أوجدها لتغيير وتطوير المجتمع بالدرجة الأولى، ولتلبية حاجاته بالدرجة الثانية في عصر الازدهار الحضاري، أما في عصر التدهور فقد حدث العكس.

نظام التعليم:

1- **الإشراف:** لم تكن الدولة تشرف على التعليم أو توجهه، ولكنها كانت تراقبه من خلال خطتي الحسبة والقضاء؛ فالتعليم إذن حر، والمعلمون أحرار، والآباء أحرار هم أيضا في تعليم أبنائهم، فلا وجود للإلزامية؛ إنما كان هناك التزام ذاتي مستمد من الشريعة الإسلامية التي تجعل من طلب العلم فريضة وجهاد، ويظهر أن الدولة كانت تتدخل في توجيه التعليم في مرحلته العالية من خلال القائمين به من الشيوخ والأساتذة، وكذا من خلال دروس الوعظ والإرشاد في المساجد.[20]

2- **المراحل:** من خلال دراستنا لنصوص والكتب التي تناولت موضوع التعليم ببلاد المغرب يمكن القول أنه كان للتعليم مرحلتان أساسيان هما:

أ:المرحلة الأولى= التمهيدية أو الابتدائية: ومؤسسات هذه المرحلة هي: "الكتاتيب" وتلاميذها الأطفال، والمواد التي تدرس بها تتمحور حول القراءة والكتابة وحفظ القرآن، وهي ليست مجانية.

ب:المرحلة الثانية= العالية أو الثانوية والجامعية تقريبا: ومؤسساتها المسجد والرباط والمكتبة والمجالس التي تعقد في دور الأمراء والعلماء، وتلاميذها أو طلبتها أكبر سنا، وتدرس بها مختلف العلوم الشرعية والعقلية والطبيعية والإنسانية؛ وهي مجانية. وكان لنظام الحلقات والمجالس دور كبير في هذه المرحلة، فقد تعددت المجالس وتنوعت الحلقات، فهناك مجالس الفقه والتفسير، ومجالس المناظرة، ومجالس الشعر والأدب، ومجالس التصوف...

3- البرنامج أو منهاج التدريس وموارده: [21]

تتشابه مواد التدريس مع ما كان قائما من المناهج في العالم الإسلامي آنذاك، وقد تكلم كل من ابن سحنون والقابسي عن البرنامج أو المنهاج كما سبقت الإشارة إليه؛ غير أن ما نضيفه هنا هو أن القابسي حدد برنامجا للمرحلة الأولى، وهو الأمر الذي ذكّر به نقده ابن خلدون حيث أعاد اقتراح القاضي أبو بكر بن العربي المتوفي بإشبيلية عام 543هـ/1148م، في قصة رحلته، وهو النظام الذي يخص على تعليم العربية والشعر قبل المواد الأخرى.[22] ذلك أن القرآن يحتاج إلى الفهم، ولكي يتمكن الطفل من ذلك فلابد له من علوم أخرى كالقواعد والشعر والقراءات، ولا تزال هذه الطريقة معروفة ببلاد المغرب، وهي التي يبدأ فيها بحفظ القرآن الكريم. وعموما فالقابسي يبين بعض خطوط هذا البرنامج وهي: إعراب القرآن، والشكل، والهجاء، والخط، والقراءة الحسنة بالتوقيف، والترتيل، كما ينصح المعلم بتلقين الحساب لأهميته؛ لكنه لا يلزمه إلا إذا رغب في ذلك التلميذ أو وليه، ويبدو من هذا مسايلي:

أولا: حرية اختيار مواد التدريس ماعدا الأساسية، وهذا له إيجابيات منها أنه يجعل من الفرد لا يقبل على تعليم مواد تخصص ما إلا إذا كان له موهبة واستعداد ومحبة ورغبة.

ثانيا: مدى مسؤولية الأولياء، ومشاركتهم الفعالة في قيام النظام التربوي والعمل على إنجاحه باقتراحهم حتى مواد التدريس لأبنائهم.

ثالثا: مراعاة المصالح العامة والأساسية للمجتمع والفرد في العملية التربوية.

ويقول القابسي في هذا المجال: "وينبغي له -المعلم- أن يعلمهم الحساب، وليس ذلك بلازم له إلا أن يشترط عليه ذلك، وكذلك الشعر والغريب، والعربية، وجميع النحو، وهو في ذلك متطوع ولا بأس أن يعلمهم الشعر مما لا يكون فيه فحش، ومن كلام العرب وأخبارها، وليس ذلك بواجب"[23]، أما مواد التعليم العالي فهي كل العلوم، كالعلوم الشرعية من تفسير وقراءات وفقه وحديث، والعلوم اللغوية، والآداب، والعلوم العقلية والاجتماعية كعلوم الطب الذي كان يدرس في بعض المكتبات، كمكتبة بيت الحكمة برقادة والقيروان، والدمنة -البيمارستان-، والرياضيات، والتاريخ والجغرافيا، والفلسفة وعلم الكلام، وتتكيف هذه البرامج حسب المذاهب والفرق التي سادت ببلاد المغرب مثل أهل السنة -الأحناف والمالكيين- والخوارج الصفرية والإباضية، والشيعة الفاطمية.

5- **أنواع التعليم:** نظرا لاختلاف البيئة الجغرافية والمذاهب الدينية والسياسية، فإن التعليم تنوع وفق التطور الحضاري الغربي والإسلامي بربوع المغرب، فكانت توجد أنواع من التعليم هي:

1- التعليم الكُتّابي: يختص بتعليم مبادئ القراءة والكتابة وتحفيظ القرآن.

2- التعليم المسجدي: ويختص في الوعظ والإرشاد والعلوم الشرعية عن طريق نظام الحلقات.

3- التعليم الرياضي: تعلم فيه كل العلوم بما فيها علوم التصوف.

4- التعليم المجالسي: وهو يختص بالمناظرات في العقائد والمذاهب والفلسفة وعلم الكلام...

5- التعليم المذهبي: ويختص بتعليم مبادئ المذهب مثل المذهب السني، والخارجي، والشيعي.

6- تعليم الرياضة: يختص بتعليم الفروسية والسباحة...

7- التعليم التصوفي: يختص بتعليم مبادئ الزهد والتصوف.

8- التعليم العام: وهو الخاص بأبناء العامة.

9- التعليم الخاص: وهو الخاص بأبناء الأمراء والولاة والأعيان.

10- التعليم المراسلي- بالمراسلة: وهو أن يبعث بعضهم لعالم يستفتيه في أمر أو أمور فيرد عليه هذا الأخير بكتاب...

11- تعليم الرحلة: يتم ذلك عن طريق الرحلة إلى طلب العلم، وذلك إما لشيخ أو إلى حاضرة كبرى بها عدد من العلماء للأخذ عنهم.

12- التعليم العملي أو التعليم المهني المباشر: وذلك مثل تعليم الحدادة والتجارة والبناء والصيد والتعدين والزخرفة.

5- **أوقات التعليم**:يبدو أنه كان للتعلب ن متفق عليه في أنحاء البلاد الإسلامية يت على طول ساعات النهار وجزءا من الليل، وهو ما وضح ن جماعة فقال: "أن يقسم -المعلم- أوقات ليله ونهاره...وأجود الأوقات للحفظ الأسحار، وللبحث الأبكار، وللكتابة وسط النهار، وللمطالعة والمذاكرة بالليل"[24]، ويبدو أن هذا التحديد جاء عم معايشة وتجربة عكست وضعا جغرافيا وتقاليد اجتماعية وتعاليم

الشريعة الإسلامية، والمغاربة لم يشذوا عن هذه القاعدة، ففي هذا المجال أورد القاضي عياض أن أبا العباس بن زرزور الحنفي الذي كان في القيروان رد على سؤال أبي جعفر بن شهر حول دواء الحفظ فقال: "الدرس بالليل والمناظرة بالنهار"[25] ذلك أن الليل يساعد الدارس على الخلو بنفسه حيث يصفو ذهنه بصفاء محيطه فيستوعب ويحفظ، لذلك ظل التبكير إلى القراءة والتعليم والحفظ عند معلمي المسلمين في بلاد المغرب من التقاليد المتوارثة، أما النهار فمشاغل الحياة كثيرة مما يجعل التركيز قليلا حتى إذا كان النقاش وتبادل الآراء شد انتباه الفرد فاستجمع قواه العقلية والذهنية، وذلك أن المناقشة أو المناظرة تتضمن عنصر الإثارة وتدعو إلى التركيز، وهو ما نبه إليه علماء المغرب.

6- **طرق التعليم**: يبدو أن المعلمين المغاربة اتبعوا طريقتين في التعليم هما: الطريقة التلقينية –السماع أو الإملاء– والطريقة هذه تطبق أكثر في المرحلة الأولى، وبداية المرحلة الثانية من التعليم. والطريقة الثانية هي الطريقة الحوارية –الجدال والنقاش والمناظرة– وتستخدم أكثر من مرحلة الثانية. ومنهما تكونت طريقة ثالثة هي الطريقة المزدوجة التي عبر عنها عياض بالكلام الطيب مع التعنيف والضرب[26] وإعطاء المتعلم قدر طاقته مع حمله على المواظبة وتحصيل العلم[27].

7- **وسائل التعليم**: تعددت وسائل التعليم حسب طبيعته وتطوره، واهم الوسائل: المؤسسة التعليمية وقد سبق ذكرها، واللوحة، والصلصال، والحبر، والدواة، والأقلام. وفي هذا المجال تم في العهد الفاطمي اختراع القلم السيال[28]، والفرش، والكرسي لمعلم

الحلقات، الريشة والألوان لترويق الألواح، والكتب، والورق للاستنساخ، والمصاحف، والدرة للتأديب.

8- **التلميذ والطالب**: إن محور العملية التربوية التعليمية هو التلميذ والطالب، ولذلك اهتم بهما منظورا حركة التعليم في بلاد المغرب على غرار المشرق، وجعلوا لهما آدابا أو قواعد سلوك لطلب العلم.و لم يحدد سن معين لمباشرة التعليم أو إنهائه، ولكن يظهر أن دخول الطفل إلى المرحلة الأولى كان بين الرابعة والخامسة،ومما يدل على ذلك حفظ التلميذ للقرآن وهو بين سن التاسعة والعاشرة، وقد ذكر الخطيب البغدادي على سبيل المثال أن الإمام البخاري غادر الكتاب وهو ابن العاشرة[29] إلا أن المصادر لم توضح هذا الأمر، و لم تتحدث عن تعليم الإناث إلا نادرا وعرضا، وقد أشار ابن سحنون والقابسي إلى ذلك، فابن سحنون يبين أن تعليم الإناث كان قائما على الأقل في المرحلة الأولى من التعليم[30]، أما القابسي فإنه عندما تحدث عن تعليمهن حذر من تعليم المرأة لبعض الفنون مثل الترسل والشعر وما شابههما[31] ويبدو أن القابسي اقر بتعليم الإناث ولكنه حدد مجال هذا التعليم خوف الفتنة ضمانا لعدم فساد أخلاقهن، وهذا ما يقره الأمير عبد القادر الجزائري بوضوح فيقول: "أن شرع الإسلام نهى عن تعليم النساء الكتابة لأن المرأة قد لا يمكنها لقاء من تهوى فتكتب له فتكون الكتابة سببا في الفتنة"[32] إلا أن إشارة ابن سحنون إلى فصل الجواري عن الغلمان دليل على أن البنات كن يتعلمن[33].

وللتلميذ والطالب آداب يلتزم بها مع نفسه فيخلص النية ويطهر القلب ويطلب العلم،وآداب في درسه كأن لا يمد رجله ولا يتخطى زملاءه ولا يضحك، وآداب مع أستاذه أو شيخه فيطيعه ويجله ويتأدب معه في الجلوس والسؤال والإصغاء والانتباه والمرافق[34] وكان الطلبة في المرحلة العليا يتلقون منحا من الدولة والناس. ويهيأ لهم مكان الإقامة والمشرفين عليه.

ويبدو أن الفصل بين البنين والبنات لم يكن بالمسألة التي تشغل بال العلماء والكتاب، ويعود هذا إلى طبيعة المجتمع الإسلامي وتقاليده القوية، لذلك اكتفى ابن سحنون بالإشارة إلى الكراهية إذا كان الفصل ممكنا وقال: "وأكره للمعلم أن يعلم الجواري ويخلطهن مع الغلمان لأن ذلك فساد لهن" [35].

و- المعلم والأستاذ أو الشيخ: ويسمى المعلم أيضا في المرحلة الأولى المكتبي أو المؤدب، والمعلم أو الأستاذ أو الشيخ في المرحلة العالية، والمعلم كان ومازال العنصر الفعال في العملية التربوية التعليمية، فكان يتحمل أعباء كثيرة منها عبء مقاومة الوثنية والشرك والكفر بنشر دعوة الإسلام، وعبء مقاومة الأمية والجهل بنشر العلم والمعرفة، وعبء الإصلاح الاجتماعي بنشر الأخلاق الفاضلة والسلوك الحسن...لذلك كان المعلم صاحب رسالة عظمى مبجلا مكرما تتنافس الخاصة والعامة في تكريمه ومساعدته على أداء رسالته، لاسيما وأن الرسول -صلى الله عليه وسلم- فيما روى أحمد بن حنبل، وابن ماجة، والدارمي قال: "إن لله أهلين من الناس قيل:من هم يا رسول الله؟ قال: هم حملة العلم، هم أهل الله وخاصته"[36]. والمجتمع الإسلامي في المغرب أدرك بعمق قيمة العلم وأهله،

وأن المعلم عمود أساسي في قيام المجتمع ونهوضه واستقراره، وبالتالي تحضره، وقد أثبت أن سحنون عن سفيان الثوري عن ابن مسعود أنه قال: "ثلاث لابد للناس منهم: "لابد للناس من أمير يحكم بينهم ولولا ذلك لأكل بعضهم بعضا، ولابد للناس من شراء المصاحف وبيعها، ولولا ذلك لقل كتاب الله، ولابد للناس من معلم يعلم أولادهم ويأخذ على ذلك أجرا، ولولا ذلك لكان الناس أميين"[37].

وقد كانت للمعلم مثل الطالب آداب –أخلاقيات المهنة–، والآداب معناها الشروط والواجبات أو القواعد المثلى التي يجب أن ينتهجها المعلم لتأدية مهنته على أحسن وجه[38]، وهذه الآداب أو الأخلاقيات قسمها علماء التربية إلى آداب نفسية، وهي الصفات الدينية والأخلاقية، ومع طلابه، وهي أدبية ومهنية، وفي الدرس صفات مهنية وفنية[39]، وتوسع بعضهم فيها توسعا كبيرا، وبذلك فإن للمعلم واجبات، وله حقوق على الحقوق على المجتمع هي كمايلي:

أ–**الواجبات**:1–التفرغ الكامل لعملية التربية والتعليم والاستزادة من العلم والمعرفة.

2–البحث عن أحسن الطرق وأيسرها لتعليم التلاميذ والطلبة، فمثلا كان على المعلم أن يحسن من السماع والإملاء ويتدرج في تقديم العلم، وأن لا يكون عبوسا في وجه الأطفال، وأن يزجرهم عما لا يصلح لهم.

3–يتأكد من حفظهم وسلامة قراءتهم وحسن الكتابة والخط.

4–على المعلم القيام بتقويم يومي وأسبوعي لمعرفة مدى استيعابهم.

5–على المعلم البحث عن مكان ملائم للتدريس،ودفع أجرته إذا لزم الأمر.

ب– الحقوق: 1– الأجرة التي أباحها حل العلماء، ويتم تحديدها بالاتفاق مع التلميذ أو وليه، وعليه في ذلك مراعاة ظروف الطالب، فالأجرة إذن ليست واحدة بالنسبة لكل الأطفال، هذا بالنسبة للمعلمين في المرحلة الأولى، أما العالية فأغلبية المعلمين هم علماء يأخذون أجرهم من الدولة كأئمة وقضاة أو لهم أرزاق.

2– العلاوات: وهي متعددة ومتنوعة منها: الختمة أو الجعل وهي ختمة القرآن كله أو جزء منه مثل: "**لم يكن الذين كفروا**"،و"**عم**"، و "**تبارك**"، و "**إنا فتحنا لك فتحا**"، و"**الصافات**"،و "**يس**" و"**الكهف**"،وقد توسعت الختمة إلى سور وأجزاء أخرى من القرآن الكريم، ومن شروط الختمة قراءة القرآن مع الحروف، وتعتبر اعترافا بجهد المعلم وتشجيعا للتلميذ.

– عطية العيدين: الفطر والأضحى.

– عطية دخول شهر رمضان.

– عطية قدوم غائب من سفره.[40]

– الهدايا المختلفة كهدايا يوم السوق، لاسيما بالنسبة لأهل الريف، هي لا تزال سائدة في ربوع مغربنا العربي حتى اليوم.

3– من حق المعلم أن يطالب بمن يخدمه وسواء تعين له واحد لذلك بأجر، ويدفع له مما يقدم،أو يتولى أولياء التلاميذ خدمته بالتداول كراعي دابته وعلفها، وبالتالي كان له حق النقل وتنظيف كُتّابه وبيته، وبالتالي له حق السكن...

4– حق تأديب تلاميذه: للمعلم الحق في تأديب تلاميذه، فله أن يحمل درة ويؤدب بالفلقة، ومن حقه متابعة تلاميذه ومراقبة سلوكهم خارج كُتّابه، وفي جميع الأوقات، بالإضافة إلى الزجر والتأنيب والتوبيخ. ومن معلمي هذا العصر

نذكر على سبيل المثال لا الحصر كلا من:القاضي أسد بن الفرات (ت213هـ / 828 م) الذي اتخذ العلم في حياته صناعة، والقارئ المشهور المعروف بابن زيبة وقد توفي في أواسط المائة الثالثة لهجرة، والداعي العلامة أبي عبد الله الصنعاني –معلم– (ت248هـ/868م)[41].

هذه عينة من عينات المعلمين الذين يبدو أنهم كانوا كثيرين في القرنين الثالث والرابع الهجريين بانتشار التعليم، وفي آخر هذا العصر وبتدهور الحالة السياسية والاجتماعية تدهور حالهم وانخفض مستواهم العلمي والمهني والأخلاقي، وزاد إهمال المجتمع لهم وضعيتهم سواء حتى غدا بعضهم يمتهن مهنا أخرى ككتابة الحروز والشهادات والوثائق والرسائل، الشيء الذي اشغلهم عن الاستزادة من المعرفة اللازمة لمهنتهم، وهذه الصورة هي التي نقلها إلينا ابن حوقل من صقلية فقال: "ومن أعجب ما رأيته خمسة معلمين في مكتب واحد يعلمون فيه الصبيان شركاء متشاكسون"[42]

10–الامتحانات والشهادات–الإجازات: لم تشر المصادر المغربية التي تمكنت من الوصول إليها إلى الامتحانات والإجازات بكل وضوح ودقة إلا بعض الإشارات الخفيفة، عكس المشرقية التي تفيض في تفصيل ذلك، وما يمكن قوله في هذا المجال أن الامتحانات كانت موجودة وصعبة يجتازها طلاب المرحلة الثانية أو العالية أمام لجنة أو لجان من كبار العلماء في المؤسسات التعليمية،منها المساجد ودور العلم؛ وتدوم أياما يحضرها الخاصة والعامة لاسيما رجال العلم وطلابه،وقد يسافر إلى حضور جلسات الامتحان هذا رجال العلم وطلابه من أماكن نائية، حيث كان يعلن عن موعدها من قبل،ويدافع الطالب الممتحن عن آرائه وأفكاره،ويظهر

مدى تحصيله المعرفي وسعة علمه،ويعترف له إذا فاز في كل ذلك وأثبتت جدارته من قبل العلماء أو لجان الامتحان،وبصورة أخرى تمنح له الإجازة أو الشهادة، وهو ما يشبه تقريبا ما يجري اليوم في الدراسات العليا –ماجستير ودكتوراه– كما قد يجيز شيخ ما لطالب من طلابه أو مجموعة منهم فيمكن له أو لهؤلاء الجلوس للتدريس أو الوعظ والإرشاد، أما في المرحلة الأولى من التعليم فالتقويم اليومي والموسمي هو نوع من الامتحان ومنح الإجازات للانتقال من مرحلة إلى أخرى.وهي كما ترى عملية متطورة في النظام ي العربي الإسلامي؛ وسمة بارزة في حركة التعليم والتربية المتميزة ببلاد المغرب في ذلك العصر.

خاتمة

إن النتائج الممكن الخروج بها من هذا البحث أو من استعراضنا لمظاهر الحركة التعليمية في المغرب الإسلامي إبان القرنيين الثالث والرابع الهجريين هي:

أولا: أن التعليم ساهم في نشر الإسلام في المناطق النائية، وعمق مفهوم الشريعة الإسلامية لدى المغاربة.

ثانيا: ساهم التعليم في نشر اللغة العربية وآدابها.

ثالثا: خدم الحركة المذهبية والسياسية بالمغرب، وأدى إلى جو من التنافس المذهبي والعلمي، من مظاهره الإقبال الشديد على طلب العلم وإقامة مؤسساته.

رابعا: أدى إلى قيام حركة تأليف ونشر واسعة النطاق.

خامسا: خفف من حدة الصراع المذهبي السياسي حيث أضعف الحوار بالسلاح أو بالقوة، وطور الحوار العلمي والفكري عن طريق المناظرات الفكرية والعلمية في مختلف المجالات.

سادسا: نشط التعليم الحركة العمرانية ببناء دور العلم، والتفنن فيها كالمساجد والربط والمكتبات والقصور والحدائق...

سابعا: ساهم التعليم في تطور الحياة الاقتصادية لا سيما التبادل التجاري بتشجيع علوم المساحة والحساب والفلك والجغرافيا والصناعة....

ثامنا: أوجد التعليم نوعا جديدا من المهن مثل الكتابة والتوثيق والشهادات والمرسلات...

والخلاصة أنه عندما عرف المجتمع خاصته وعامته قيمة العلم ووسيلته التعليم، وإكرام أهله والقائمين عليه، تمكن من المساهمة في البناء الحضاري آنذاك العربي الإسلامي في منطقة المغرب، والتي لازالت مظاهره قائمة حتى اليوم، وأثاره بادية للعيان في سلوك وممارسة شعوب المغرب رغم عصور التخلف، وعصور الغزو الاستعماري.فهل يجب علينا لكي نعاود الكرة في المساهمة في بناء حضاري آخر ومعاصر، أن نعود إلى دراسة هذا التراث ونستلهم منه ما يقوم مناهجنا التربوية والتعليمية –أقول إن ذلك ممكن إذا.....؟

الهوامش

[1] جوليان شارل: **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ترجمة محمد مزالي، والبشير بن سلامة، ط.3، الدار التونسية للنشر، تونس –الجزائر 1978، ص 382/1

[2] جوليان: نفسه، 321/1، صفر أحمد: **مدنية المغرب العربي في التاريخ**، دار النشر بوسلامة، تونس 1959، ص 160.

[3] ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب**، ج:1. ت.ج.س كولان، و إ. ليفي بروفنسال، ط:3. ، دار الثقافة، بيروت 1983، ص 42.

[4] الرقيق القيرواني:تاريخ إفريقية والمغرب، تحقيق المنجي الكعبي، نشر رفيق السقطي، مطبعة الوسط، تونس 1968، ص 70.

[5] نفسه:70، ابن عذاري: البيان 43/1، الأنجم الزاهرة في فتح إفريقية مخ بدار الكتب، تونس رقم: 410 و 53.

[6] محمد الجودي: تاريخ قضاة القيروان، مخ بدار الكتب التونسية رقم 18397 و 8.

[7] لا يوجد هذا في الطبقات الحالية التي هي بين أيدينا.؟

[8] المالكي:رياض النفوس، تحقيق البشير بكوش والعروسي المطوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1403/1983، 443/1.

[9] لم أعثر على النص بحرفيته في آداب المعلمين، ويمكن أن يكون نقله عن القنابسي.

[10] الدباغ أبو زيد: المعالم، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة تونس، ومكتبة الخانجي مصر 1978، ص 113.

[11] ابن خلدون: المقدمة، ط.3، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1967، ص 1093.

[12] مقدمة الرسالة المفصلة للقابسي –تحقيق أحمد خالد، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، تونس 1986، ص 19.

[13] عبد الأمير شمس الدين:الفكر التربوي عند ابن سحنون والقابسي، دار اقرأ، بيروت 1405/1985، ص 82.

[14] عبد الأمير شمس الدين:المذهب التربوي عند ابن جماعة، دار اقرأ بيروت 1404هـ/ص 13.

[15] المالكي:الرياض 1/58، الدباغ: المعالم 1/151 =يذكر الدباغ أن سفيان بن وهب (ت 82هـ/701م) صاحب الرسول الله –صلى الله عليه وسلم– كان يمر على الغلمان بالقيروان فيسلم عليهم في الكتاب.

[16] ابن حوقل: صورة الأرض ط.2، مطبعة بريل، ليدن 1938، ص 123.

[17] الكعاك عثمان: مراكز الثقافة في المغرب (من القرن 16 إلى القرن 19م)، معهد الدراسات العربية العالمية، بيروت 1958، ص 18.

[18] أبو زكرياء يحي بن أبي بكر: سير، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1984، ص 143؛ يحي معمر: الإباضية في موكب التاريخ 1/154.

[19] الخشني محمد: طبقات علماء إفريقية وتونس، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ص ص 168، 169.

[20] ابن الخطيب لسان الدين: أعمال الإعلام (تاريخ المغرب في العصر الوسيط) تحقيق مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، دار الكتاب، الدار البيضاء 1964، ص 13.

[21] أنظر في ذلك: منير الدين أحمد: تاريخ التعليم عند المسلمين والمكانة الاجتماعية لعلمائهم حتى القرن الخامس الهجري، دار المريخ، الرياض 1981.

[22] ابن خلدون: المقدمة، 1040.

[23] القابسي: الرسالة، 113.

[24] ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم في آداب المعلم والمتعلم، دار اقرأ، بيروت 1404/1984، ص114.

[25] عياض القاضي: ترتيب المدارك، تـ أحمد بكير محمود، دار مكتبة الحياة، بيروت، 78/1/1.

[26] نفسه، 115/3/1.

[27] النعمان القاضي: المجالس والمسايرات، ترجمة، الحبيب الفقي وإبراهيم شبوح واليعلاوي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس 1978، ص ص 220، 312.

[28] نفسه ص: 319= قال النعمان:"ذكر الإمام المعز لدين الله عليه السلام القلم فوصف فضله ورمز فيه بباطن العلم ثم قال: نريد أن نعمل قلما يكتب بلا استمداد من دواة يكون مداده من داخله فمتى شاء الإنسان كتب به فأمده بذلك ومتى شاء تركه فارتفع المداد، وكان القلم ناشفا يجعله الكاتب في كمه أو يؤثر فيه ولا يرشح من المداد عنه، ولا يكون ذلك إلا عند ما يبتغي منه ويراد الكتابة به فيكون آلة عجيبة لم نعلم إنا سبقنا إليها دليلا على حكمة بالغة لمن تأملها وعرف وجه المعنى فيها... فما مر بعد ذلك إلا أيام قلائل حتى جاء الصانع به معمولا من ذهب فأودعه المداد، وكتب به فكتب، وزاد شيئا من المداد على مقدار الحاجة فأمر بإصلاح شيء منه فأصلحه، وجاء به فإذا هو قلم يقلب في اليد ويميل إلى كل ناحية يبدو منه شيء من المداد فإذا أخذه الكاتب وكتب به أحسن كتاب ما شاء أن يكتب به، ثم إذا رفعه عن الكتاب أمسك المداد."

[29] تاريخ بغداد: 6/2، 343/3، 259/5، 89/10، 90.

[30] ابن سحنون محمد، كتاب آداب المعلمين، تحقيق الدكتور محمد عبد المولى، ط2، ش و ن ت، الجزائر 1981، ص 85.

[31] القابسي أبو الحسن: الرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعلمين، تحقيق احمد خالد، الشركة التونسية للنشر والتوزيع، تونس 1986، ص 95.

[32] ذكرى العاقل وتنبيه الغافل. تـ تحقيق ممدوح حقي، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1976، ص 113.

[33] ابن سحنون: آداب 85.

[34] عبد الأمير محمد شمس الدين: المذهب التربوي عند ابن جمتعة، ص 27.

[35] ابن سحنون: آداب. 89.

[36] رواه أحمد بن حنبل في مسند المكثرين، وابن ماجة في المقدمة رقم 215، والدارمي في كتاب فضائل القرآن.

[37] نفسه: 73.

[38] السمعاني: عبد الأمير شمس الدين: المذهب التربوي عند ابن جماعة، ص 14.

[39] نفسه: 18.

[40] القابسي: 95 وما بعدها.

[41] تراجع في ذلك كتب الطبقات كالرياض، وطبقات علماء إفريقية، والمعالم، وتذكرة الحفاظ، والبيان المغرب، والديباج...